السلفية.. دراسة نقدية



06 جمادى الأول 1435 هـ ـ 07 / 03 / 2014 م

www.ommaty1401.blogspot.com

قاعدة أساسية في النقد

هذا النقد مقصود به الفكر.. الفكر ولا شيء غير الفكر، لا أعني به أشخاصاً أو هيئات بعينها، ولست معنياً بالحديث عن ذواتهم وأخلاقهم وعبادتهم، فقد يكونوا أكثر أخلاقاً وعبادة وفداءً وتضحية وحباً للدين. ولا أتعرض لذلك أبداً.

بل أتعرض للمنهج الفكري، لمحاولة التصحيح لا التشهير، الوحدة لا الفرقة، والعبرة كذلك بالفكر والمنهج لا الشارات والمسميات.

وإن نقد "الحركة الإسلامية" أو المسلم العامل لدينه مسألة غاية في الضرورة، وغائبة عن المشهد الإسلامي بشكل عام .. إذ (وللأسف) مازال في مخيلة الكثيرين أن النقد يعني الهدم، وأن الناقد لا بد وأن يكون حاقداً كارهاً معادياً من الخصوم! ونشأ ذلك نتيجة طبيعة التربية وطرق التعليم ! التي تُلقي الطهر والقداسة على شخص، والدنس والحقارة على الآخر بلا ميزان دقيق.. يدور مع الحق حيث دار.

إننا يجب أن نمارس حالة من النقد المستمر.. بل ونبحث عن من ينقدنا ويقيم أعمالنا وكيف يرانا من الخارج، طالما أننا نبتغي دوماً الأفضل، ونتطلع إلى الاستقامة الدائمة.

وإن نقد الفكر لا يعني الحكم على المسميات والأفراد. وإنما يبقى في دائرة الفكر، بل وفي دائرة كل فكرة على حدا.

إن كبرى الشركات والهيئات في العالم، تبحث عن مكاتب من خارجها لتُقيم لها حساباتها، وجودة إدارتها، وإعادة هيكلتها.. والتدريب المستمر على كل ما يرفع من الكفاءة والانتاج، أفلا تكون "حركة المسلمين" وهم يحاولون بعث دينهم من جديد تحتاج إلى مثل ذلك ؟! لا سيما مع الإخفاقات الكثيرة التي تقع، ويحدث معها كوارث كبرى.

وإن محاولتي هذه، ما هي إلا محاولة مسلم يحب دينه، ويحب المسلمين.. كل المسلمين. ويتوجه إليهم بالنقد بكل الحب والحرص والولاء والنصرة (في الحق) بلا تعصب ولا غل ولا كره ولا ضغينة. أبتغي منها رضى الله سبحانه، ونصرة دينه، ورفع شأن المسلمين.

فاللهم ألهمني الرشد والسداد والحق والصواب، وأعوذ بك من النفاق والشقاق والسمعة والرياء.

المعنى

السلف: تعني الجيل السابق أو ما مضى. وقد استخدم هذا المصطلح علماء فترة "الملك العضوض" وفقهاء ذلك الزمان للدلالة على سلفهم وهم "الصحابة" وجيل الخلافة الراشدة، وأن سلف الأمة في الحكم والعقيدة والسياسة كانوا – ولا شك – هم القدوة والنموذج بعد رسول الله ﷺ.

التاريخ

"يعتقد بأن السلفية ما هي إلا امتداد لمدرسة أهل الحديث والأثر الذين برزوا في القرن الثالث الهجري في مواجهة المعتزلة في العصر العباسي تحت قيادة أحمد بن حنبل أحد أئمة السنة الأربعة، فكان المعتزلة يتخذون مناهج عقلية في قراءة النصوص وتأويلها واستمدوا أصولهم المنطقية من الحضارة الإغريقية عن طريق الترجمة والتعامل المباشر، ورأى أهل الحديث في هذه المناهج العقلية خطراً يهدد صفاء الإسلام ونقاءه وينذر بتفكك الأمة وانهيارها.

بعد ذلك شهدت السلفية انحسارًا ملحوظًا شعبيًا وسياسيًا بعد انقسام الفقهاء الإسلاميين وأهل الحديث إلى حنابلة وأشعرية، حتى قوي جانب الأشاعرة وتبنى بعض الأمراء مذهبهم، إلى أن ظهر ابن تيمية في القرن السابع بالتزامن مع سقوط عاصمة الدولة العباسية بغداد على أيدي التتار سنة 656 هـ فعمل على إحياء الفكر السلفي وقام بشن حملة على من اعتبرهم أهل البدع داعياً إلى إحياء عقيدة ومنهج السلف من أجل تحقيق النهضة.

ثم شهدت السلفية انحساراً كبيراً مرة أخرى بعد ذلك. لتعاود الظهور مرة أخرى في القرن الثامن عشر الميلادي متمثلة في دعوة محمد بن عبد الوهاب في شبه الجزيرة العربية والتي واكبت عصر انحطاط وأفول نجم الدولة العثمانية وصعود الاستعمار الغربي".

القضايا الرئيسية:

الأسماء والصفات والفرق المبتدعة

وكانت أهم القضايا في عصرهم هذا هي قضية الأسماء والصفات وصار حولها لغطاً شديداً واضطراباً كبيراً نتيجة تلوث العقيدة الإسلامية الصافية بالفلسفة الإغريقية، فاعتصم علماء السنة وقتها بسلف الأمة من الصحابة في فهم قضايا الأسماء والصفات.

كما تصدوا كذلك لمناهج الفرق المبتدعة كالشيعة الروافض، والخوارج، والقدرية...إلخ.

شاع في هذه الفترة من "الملك العضوض" القول بعدم جواز الخروج على الحاكم، وكان من أبرز هؤلاء المذهب الحنبلي، ولكن خالفته بقية المذاهب الأخرى، بل ومنهج الصحابة كذلك. وأياً كان الأمر.. فهو خاص بفترة "الملك العضوض" وخاص كذلك بظروف كل حالة على حدا، وفقاً لظروف الواقع، والحال، والمآل.. وليست هي "حكم عام على كل حاكم" وليست هي قضية عليها "إجماع"، وليست قضية "عقيدية"، وليس من خالفها يصبح من فوره "خوارج" !!

ويتبين هنا التلاعب بمصطلح "السلفية" فيقول قائل: والذي عليه "منهج السلف" هو عدم الخروج على الحاكم. ومنهج السلف – في نظره – يعني مذهبه الفقهي أو شيخه. وبمثل هذا التعصب والتحزب وقع الشقاق في الأمة ! بل به أيضاً تمت شرعنة "الاستبداد السياسي" الذي همش الأمة، وأضعف وجودها الحضاري، وذاقت بسببه الويلات!

وأنقل هنا بعض أقوال الصحابة وبعض أئمة علماء السنة في هذه المسألة لتوسيع الرؤية والإدراك، ولنتبين أن الصورة الأحادية التي يتبنها فريق ويتعصب لها تكون – ولا شك – ملوثة بالهوى والتعصب والتحزب:

1– خطب عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فقال: "إني لم أبعث عمالي ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، فمن فعل ذلك به فليرفعه إليَّ أقصَّه منه". فقال عمرو بن العاص: "أرأيت لو أن رجلاً أدب بعض رعيته أتقصه منه". فقال عمر: "أي والذي نفسي بيده، ألا أقصه وقد رأيت رسول الله ﷺ أقصَّ من نفسه" [رواه أبو داود في السنن برقم 4537].

وقال له أحد المسلمين: "استخلف ابنك عبد الله". فقال: «قاتلك الله، والله ما أردت الله بذلك، ويحك لا إرب لنا في أموركم، ما حمدتها لنفسي فأرغبها لواحد من أهل بيتي، إن كان خيرًا فقد أصبنا منه، وإن كان شرًا فحسب آل عمر أن يُحاسب منهم رجلٌ واحد ويُسأل عن أمر أمة محمد. لقد أجهدت نفسي وحرمت أهلي، وإن نجوت لا عليَّ ولا لي، فإني إذا لسعيد.» وهذا الفعل من دروس هذا الحديث: عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ ، قَالَ : قَالَ أَبُو بَكْرٍ حِينَ بَعَثَنِي إِلَى الشَّامِ : يَا يَزِيدُ ، إِنَّ لَكَ قَرَابَةً عَسَيْتَ أَنْ تُؤْثِرَهُمْ بِالْإِمَارَةِ ، وَذَلِكَ أَكْبَرُ مَا أَخَافُ عَلَيْكَ ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : " **مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا ، فَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ أَحَدًا مُحَابَاةً ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا ، حَتَّى يُدْخِلَهُ جَهَنَّمَ ، وَمَنْ أَعْطَى أَحَدًا حِمَى اللَّهِ ، فَقَدْ انْتَهَكَ فِي حِمَى اللَّهِ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ ، أَوْ قَالَ : تَبَرَّأَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ** " . [مسند الإمام أحمد/21]

وقال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لابن القبطي: «لو ضربت عمرو بن العاص ما منعتك؛ لأن الغلام إنما ضربك لسلطان أبيه»

وكتب لقادة الجيوش يقول: "حذار من الترف الفارسي، سواء في المطعم او في الملبس والزموا عادات بلادكم البسيطة، وسينصركم الله عليهم وسيفتح لكم."

2- روى ابن جرير الطبري في تاريخه من حديث موسى بن عقبة المؤرخ عن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قوله: "فلن يعجز الناس أن يولوا رجلاً منهم فإن استقام اتبعوه وإن جنف قتلوه" فقال طلحة: "وما عليك لو قلت إن تعوج عزلوه" فقال: "لا القتل أنكل لمن بعده" [تاريخ الطبري 572/2، ط دار الكتب العلمية- بيروت].

3- روى مسلم في صحيحه (أَنَّهُ لَمَّا كان بين عبد اللَّهِ بن عَمْرٍو وَبَيْنَ عَنْبَسَةَ بن أَبِي سُفْيَانَ ما كان، تَيَسَّرُوا لِلْقِتَالِ [وذلك أن عنبسة بن أبي سفيان – أمير الطائف لأخيه معاوية – أراد أن يأخذ قطعة من أرض عبد الله بن عمرو بن العاص يقال لها (الوهط) فجمع عبد الله ولده وعبيده واستل سيفه] فَرَكِبَ خَالِدُ بن الْعَاصِ إلى عبد اللَّهِ بن عَمْرٍو فَوَعَظَهُ خَالِدٌ، فقال عبد اللَّهِ بن عَمْرٍو: "أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قال: ((من قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ))" [صحيح مسلم برقم 141 ج1ص124]

4- وقال ابن عبد البر الأندلسي المالكي: "قوله: ((ألَّا ننازع الأمر أهله))، فقال قائلون: أهله أهل العدل، فهؤلاء لا ينازعون لأنهم أهله، أما أهل الجور والظلم فليسوا بأهل له، واحتجوا بقوله - تعالى -: {لا ينال عهدي الظالمين}، ذهب إلى هذا طائفة من السلف الصالح، وتبعهم خلف من الفضلاء والعلماء من أهل المدينة والعراق، وبهذا خرج ابن الزبير والحسين بن علي على يزيد وخرج خيار أهل العراق وعلماؤهم على الحجاج وخرج أهل المدينة على بني أمية في الحرَّة..." [الاستذكار 16/5؛ والتمهيد 278/23].

5- وقال القرطبي المالكي في تفسير قوله -تعالى-: {قال لا ينال عهدي الظالمين}: "استدل جماعة من العلماء بهذه الآية على أن الإمام يكون من أهل العدل والإحسان والفضل مع القوة على القيام بذلك وهو الذي أمر النبي ﷺ ألا ينازعوا الأمر أهله على ما تقدم من القول فيه فأما أهل الفسوق والجور والظلم فليسوا له بأهل؛ لقوله تعالى {لا ينال عهدي الظالمين} ولهذا خرج ابن الزبير والحسين بن علي رضي الله عنهم وخرج خيار أهل العراق وعلماؤهم على الحجاج وأخرج أهل المدينة بني أمية وقاموا عليهم فكانت الحرة التي أوقعها بهم مسلم بن عقبة والذي عليه الأكثر من العلماء أن الصبر على طاعة الإمام الجائر أولى من الخروج عليه..." [تفسير القرطبي ج2/ص108-109 ط دار الشعب – القاهرة].

6- و قال محيي الدين النووي الشافعي: " قال القاضي عياض: أجمع العلماء على أن الإمامة لا تنعقد لكافر، وعلى أنه لو طرأ عليه الكفر انعزل، قال: وكذا لو ترك إقامة الصلوات والدعاء إليها.. قال: وكذلك عند جمهورهم البدعة.. قال: وقال بعض البصريين تنعقد له وتستدام له؛ لأنه متأول. قال القاضي: فلو طرأ عليه كفر وتغيير

للشرع أو بدعة خرج عن حكم الولاية وسقطت طاعته ووجب على المسلمين القيام عليه وخلعه ونصب إمام عادل إن أمكنهم ذلك، فإن لم يقع ذلك إلا لطائفة وجب عليهم القيام بخلع الكافر..." [شرح مسلم للنووي 229/12، ط2 دار إحياء التراث العربي-بيروت-1392هـ].

7- قال الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب النجدي الحنبلي: " وقد اختلف أهل السنة والجماعة في هذه المسألة وكذلك أهل البيت، فذهبت طائفة من أهل السنة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من الصحابة فمن بعدهم كسعد بن أبي وقاص وأسامة بن زيد ومحمد بن مسلمة وعبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وغيرهم، وهو قول أحمد بن حنبل وجماعة من أصحاب الحديث إلى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باللسان إن قدر على ذلك، وإلا فبالقلب فقط، ولا يكون باليد وسل السيوف والخروج على الأئمة وإن كانوا أئمة جور.

وذهبت طائفة أخرى من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ومن بعدهم من التابعين ثم الأئمة بعدهم إلى أن سل السيوف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب إذا لم يقدر على إزالة المنكر إلا بذلك، وهو قول علي بن أبي طالب وكل من معه من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كعمار بن ياسر وابن عباس وأبي سعيد الخدري وغيرهم، وهو قول أم المؤمنين ومن معها من الصحابة كعمرو بن العاص والنعمان بن بشير وأبي العادية السلمي وغيرهم، وهو قول عبد الله بن الزبير والحسين بن علي، وهو قول كل من قام على الفاسق الحجاج كعبد الرحمن بن أبي ليلى وسعيد بن جبير وأبي البختري الطائي وعطاء السلمي والحسن البصري والشعبي ومن بعدهم كالناسك الفاضل عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر وعبيد الله بن حفص بن عاصم وسائر من خرج مع محمد بن عبد الله بن الحسين بن الحسن بن علي بن أبي طالب ومع أخيه إبراهيم بن عبد الله وهشيم بن بشير والوراق وغيرهم " [جواب أهل السنة ص70-71].

8- وقال ابن حزم الأندلسي الظاهري: "وذهبت طوائف من أهل السنة وجميع المعتزلة وجميع الخوارج والزيدية إلى أن سل السيوف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب إذا لم يمكن دفع المنكر إلا بذلك، قالوا: فإذا كان أهل الحق في عصابة يمكنهم الدفع ولا ييأسون من الظفر ففرض عليهم ذلك، وإن كانوا في عدد لا يرجون لقلتهم وضعفهم بظفر كانوا في سعة من ترك التغيير باليد.

وهذا قول علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكل من معه من الصحابة وقول أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وطلحة والزبير وكل من كان معهم من الصحابة وقول معاوية وعمرو والنعمان بن بشير وغيرهم ممن معهم من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين وهو قول عبد الله بن الزبير ومحمد والحسن بن علي وبقية الصحابة من المهاجرين والأنصار والقائمين يوم الحرة رضي الله عن جميعهم أجمعين وقول كل من أقام على الفاسق الحجاج ومن والاه من الصحابة رضي الله عنهم جميعهم كأنس بن مالك وكل من كان ممن ذكرنا من أفاضل التابعين كعبد الرحمن ابن أبي ليلى وسعيد بن جبير وابن البحتري الطائي وعطاء السلمي الأزدي والحسن البصري ومالك بن دينار ومسلم بن بشار

وأبي الحوراء والشعبي وعبد الله بن غالب وعقبة بن عبد الغافر وعقبة بن صهبان وماهان والمطرف بن المغيرة ابن شعبة وأبي المعد وحنظلة بن عبد الله وأبي سح الهنائي وطلق بن حبيب والمطرف بن عبد الله ابن الشخير والنصر بن أنس وعطاء بن السائب وإبراهيم بن يزيد التيمي وأبي الحوساء وجبلة بن زحر وغيرهم، ثم من بعد هؤلاء من تابعي التابعين ومن بعدهم كعبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر وكعبد الله بن عمر ومحمد بن عجلان ومن خرج مع محمد بن عبد الله بن الحسن وهاشم بن بشر ومطر ومن خرج مع إبراهيم بن عبد الله وهو الذي تدل عليه أقوال الفقهاء كأبي حنيفة والحسن بن حيي وشريك ومالك والشافعي وداود وأصحابهم فإن كل من ذكرنا من قديم وحديث إما ناطق بذلك في فتواه وأما فاعل لذلك بسل سيفه في إنكار ما رآه منكرا." [الفِصَل في الملل والنحل 132/4].

ثم قال: " قال أبو محمد: والواجب أن وقع شيء من الجور وإن قل أن يكلم الامام في ذلك ويمنع منه فان امتنع وراجع الحق واذعن للقود من البشرة أو من الاعضاء ولإقامة حد الزنا والقذف والخمر عليه فلا سبيل إلى خلعه وهو إمام... فإن امتنع من إنفاذ شيء من هذه الواجبات عليه ولم يراجع وجب خلعه وإقامة غيره ممن يقوم بالحق لقوله تعالى: {وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان} ولا يجوز تضييع شيء من واجبات الشرائع وبالله تعالى التوفيق". [الفصل في الملل والنحل ج4 ص134-135].

9- وقال ابن الوزير اليماني أحد كبار مجتهدي المذهب الزيدي: وقوله: " ألا ننازع الأمر أهله" على أئمة العدل. قال عياض : وحجة الجمهور أن قيامهم على الحجاج ليس بمجرد الفسق ، بل لما غيّر من الشرع ، وأظهر من الكفر . انتهى كلامه. وفيه بيان اتفاقهم على تحسين ما فعله الحسين – عليه السلام– وأصحابه وابن الأشعث وأصحابه وأن الجمهور قصروا جواز الخروج على من كان على مثل تلك الصفة، وأن منهم من جوز الخروج على كل ظالم، وتأول الحديث الذي فيه : ((وألا ننازع الأمر أهله)) على أئمة العدل . وفيه أنهم اتفقوا على الاحتجاج بفعل الحسين –عليه السلام– ، ولكن منهم من احتج على جواز الخروج على الظلمة مطلقاً، ومنهم من قصره على من فَحُش ظلمه وغيَّر الشرع ، ولم يقل مسلم منهم ولا من غيرهم: إن يزيد مصيب والحسين باغ إلا ما ألقاه الشيطان على السيد، ولا طمع الشيطان بمثل هذه الجهالة أحداً قبل السيد ." [العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم لابن الوزير اليماني (8/75-78) ط3 مؤسسة الرسالة 1415ﻫ/1994م]. [نقلا عن الشيخ/نادر سعد العُمَري]

هذا حال علماء السلف مع الخلفاء الأمويين وأوائل العهد العباسي. وأذكر على سبيل المثال: قول سفيان الثوري وهو يكتب إلى هارون الرشيد: "من العبد المذنب سفيان بن سعيد المنذر الثوري إلى العبد المغرور بالآمال هارون الرشيد الذي سُلب حلاوة الإيمان". وهذا عطاء بن أبي رباح يكلم الوليد بن عبد الملك حين سأله أن يحدثه فيقول: "بلغنا أن في جهنم وادياً يقال له هبهب أعده الله لكل إمام جائر في حكمه، فصعق الوليد من قوله". وهذا الحسن

البصري يصيح بعامر الشعبي حين ألان الحديث للحجاج فيقول: "إليك عني يا عامر ! يقول الناس عامر الشعبي عالم أهل الكوفة. أتيت شيطاناً من شياطين الأنس تكلمه بهواه وتقاربه في رأيه، ويحيك عامر هلا اتقيت". وهذا ابن أبي ذؤيب يجيب أبا جعفر المنصور وقد سأله رأيه فيه فيقول: "أشهد أنك أخذت هذا المال من غيره حقه فجعلته في غير أهله، وأشد أن الظلم ببابك فاشي".

هذا حالهم وقت أن كان للإسلام خلافة وأمة، فما بالنا بما حل بالأمة وبالمسلمين الآن.

وإنني هنا لست بصدد مناقشة هذه القضايا بقدر مناقشة "منهجية الفكر" وتصحيح مساره للعودة إلى المنهج الإسلامي الشامل بلا فرقة ولا تعصب ولا اختلاف في الدين.

وإن الجمود عند مرحلة القرون الثلاثة واختيار من بين قضايا هذه القرون الثلاثة "قضية الأسماء والصفات، وعدم الخروج على الحاكم" واستحضار المشكلات التي كانت سائدة في عصرهم ! ومجيء الأجيال من بعدهم تتعاطى نفس المشكلة بنفس الأسلوب ! حتى وإن كانت هذه المشكلة ليست بعصرهم، وحتى ولو كان الأسلوب غير مناسب؛ فهذا هو الذي أحدث التحزب والتطرف المذهبي والفكري، والذي أدى – في النهاية – إلى صورة جامدة عقيمة لم تستطع معايشة قضايا الأمة، ولم تستطع إخراجها من الملك الجبري والطواغيت..! وهذا هو الذي أنتج الكثير من النماذج الفكرية المشوهة والتي حصرت العلم في أسوء مرحلة في القرون الثلاثة، واختارت ما يُغيب الناس عن واقعها ومشكلاتها من جانب، ويحمي الاستبداد والطغيان على الجانب الآخر.

بل اعتبروا أن منهج السلف هو: "السمع والطاعة وحرمة الخروج على الحاكم" جرياً على مذهب الحنابلة والأوزاعي الذين يحرمون الخروج على الحاكم الجائر، وإن خالف في هذا بعض الحنابلة مثل ابن رجب الحنبلي وأبو الوفاء علي بن عقيل وأبو الفرج بن الجوزي وعبد الرحمن بن رزين.. الذين يرون مشروعية الخروج ناهيك عن أبي حنيفة والشافعي ومالك وابن حزم الذين يجيزون الخروج على الحكام الظلمة. فضلاً عن كل هؤلاء كل يتحدثون عن "فترة الملك العضوض" والخلافة قائمة، والشريعة حاكمة في العموم، وأعلام الجهاد دائمة في العموم.

والعجيب أن قضايا عصرهم هذا انتقلت للأمة الآن، وهي في مرحلة "الملك الجبري والطواغيت" وحاول سلفيو هذا العصر استحضار مشكلات عصر علماء السنة في فترة الملك العضوض، والعيش في زمانهم، والهروب من قضايا أمتهم وعجزهم عن تقديم أي رؤية ومنهجية في مواجهتها، لأنهم مقلدون ولا يملكون ملكات المواجهة.. بل قال بعض أئمتهم المعاصرين: "من السياسة ترك السياسة" " أحسب أن مقولة (دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله) كلمة حكيمة تصلح لزماننا" وآخر يقول: "السلفية هم أهل السنة والجماعة، ولا يصدق هذا الوصف على غيرهم أبداً.. بل ويخرج الأشعريون من وصف أهل السنة" !!

كما يجب أن لا ننسى أن عصر هؤلاء الأئمة من علماء السنة الأفاضل، وما جرى فيه من أحداث سياسية واقتصادية واجتماعية لم تكن أبداً هي الصورة المثالية أو الخلافة الراشدة ! بل إن الخلافة العباسية سقطت في كارثة ظن فيها المسلمين أنها نهاية العالم، فبينما كان بعض العلماء مشغولين بالخلافات المذهبية والتناحر والتسابق بين الأمراء، كان الجزء الشرقي من الخلاقة يسقط دولة تلو الأخرى، حتى سقطت عاصمة الخلافة بغداد نفسها مُخلّفة ورائها 2 مليون مسلم قتيل !! واحتل التتار بلاد المسلمين ولم يتبق لهم إلا الشام ومصر.. وقيض الله لها "قطز" ليصد هجمة التتار وهم في المرحلة الأخيرة من قضائهم على الدول الإسلامية برمتها. و"صلاح الدين" ليصد هجمة الصليبيين. وكلاهما كان أشعرياً !

***

التطور

تطور المصطلح جيلاً بعد جيل لتتسع دائرة "السلف" وتصبح كل من خلّفوا! فلم تعد تشمل جيل الصحابة والخلافة الراشدة، بل يشمل علماء المذاهب الفقهية، بل وعلماء السلطان الجبري والطواغيت !! وصار الصراع على هذا المسمى.. كلٌ يدعي لنفسه "السلفية"!! بل ازداد الأمر تطرفاً فأصبحت السلفية وما بها من غموض حول هذا المعنى هي الإسلام ! بل قِيل إن محمد ﷺ كان سلفياً !

وشاع هذا المصطلح في بيئة حزبية مقيتة قائمة على التناحر والتفرق في الدين، ومن أبرز ذلك التناحر الصراع بين المذاهب الفقهية كالحنابلة والأشاعرة الشافعية.. صراعاً وصل لحد الاقتتال !!

وصراع معيار الحق والباطل هو "شعار وختم السلفية" هذا فلان سلفي متبع مقلد ! وغيره ليس بسلفي لا يجوز قراءة كتبه أو اتباع منهجه !

تطور المصطلح والتصق به: الجمود – التعصب – التقليد – السطحية – القسوة على المخالف، بل وأحياناً التكفير – التشنيع بالآخر – العجز عن معالجة قضايا المجتمع ومشكلات العصر – الشدة على الأمة والتراخي مع الحُكام.

الشعارات

قرآن وسنة بفهم سلف الأمة.

ودخل في سلف الأمة علماء المذاهب الفقهية والإرث الهائل من النقولات والتقليد بل والفتاوى الشاذة ! وأصبحت هذه النقولات بمنزلة الوحي في قلوب العامة، وأصبحت أقوال الرجال هي الوسيلة الوحيدة لفهم الوحي ! وأصبح اجتهادهم في زمانهم أو تقليدهم لمن كان قبلهم هو "فهم سلف الأمة" الذي من يتجاوزه فقد

تجاوز الدين، واتبدع فيه ! وأصبح كل ما يحاول الاقتباس من نور الوحي ليضيء ظلمة واقعه ومشكلات عصره فهو منحرف عن "السلفية".

ولما كان هناك تباين في أقوال الرجال، أصبح المنهج السلفي جاهز لكل وضع، فهذا فلان السلفي يقول، والسلفي الآخر يقول.

ودار هذا المنهج السلفي في دوران التقليد والتراث ولا شيء غيره، وكل الانتاج الفكري – إن كان هناك انتاجاً فكرياً – ما هو إلا حواشي ومختصرات وتحقيقات، والشيخ والعالِم هو مجرد من يحفظ القرآن بالروايات العشر، ويحفظ كتب السنن الستة دراية وإسناداً ورواية. دون علوم السنن والواقع والحياة وما تقوم به المجتمعات والدول.

واستُهلك شباب الأمة في الدوران في فلك هذا المنهج الفضفاض المتنوع الذي تفرّعت عنه أشكال كثيرة لكن في النهاية كلها كان يغلب عليها عيوب: التقليد – الجمود – والسطحية – العصبية.

خيرية القرون الثلاثة الأولى

ورُوي هذا الحديث بأكثر من رواية، هناك رواية اقتصرت على قرن النبي ﷺ وسلم فقط، وهناك رواية اقتصرت على القرنين الأول والثاني وشككت في الثالث، وهناك رواية اعتمدت على الثلاثة قرون، وهناك رواية وصلت لأربعة قرون:

* حَدَّثَنِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الدِّمَشْقِيُّ ، قَالَ : سَمِعْتُ أَكْثَمَ بْنَ الْجَوْنِ يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " **خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي** " (تاريخ دمشق لابن عساكر/ 72227)

عَنِ عُمَرَ ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : " **خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي بِطُولِهِ** " (التاريخ الكبير للبخاري / 102)

* عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " **خَيْرُ أُمَّتِي الْقَرْنُ الَّذِينَ بُعِثْتُ فِيهِمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَذَكَرَ الثَّالِثَ أَمْ لَا ، قَالَ : ثُمَّ يَخْلُفُ قَوْمٌ يُحِبُّونَ السَّمَانَةَ يَشْهَدُونَ قَبْلَ أَنْ يُسْتَشْهَدُوا** " (صحيح مسلم/ 4608)

* عَنْ عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " **خَيْرُكُمْ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ** . قَالَ عِمْرَانُ : لَا أَدْرِي ، أَذَكَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدُ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " **إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ ، وَيَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ ، وَيَنْذِرُونَ وَلَا يَفُونَ ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ** " . (صحيح البخاري / 2470)

* عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " **خَيْرُ الْقُرُونِ الْقَرْنُ الَّذِي أَنَا فِيهِمْ ، ثُمَّ الثَّانِي ، ثُمَّ الثَّالِثُ ، ثُمَّ الرَّابِعُ لا يَعْبَأُ اللَّهُ بِهِمْ شَيْئًا** " غَرِيبٌ مِنْ حَدِيثِ الأَعْمَشِ. (حلية الأولياء / 5328)

وأي كانت الرواية الأصح فعموم الحديث بكل روايته يتحدث فيها النبي ﷺ عن مرحلة قدرية تاريخية ستمر بها الأمة مثل حديثه: "**عَنْ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ : كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ ، قَالَ : نَعَمْ ، قُلْتُ : وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ ، قَالَ : نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ ، قُلْتُ : وَمَا دَخَنُهُ ، قَالَ : قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ ، قُلْتُ : فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ ، قَالَ : نَعَمْ دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا** ..." (صحيح البخاري/ 3360)

وفهم منه السلفيون أن يتوقف الانتاج الفكري والاجتهاد عند حدود الثلاثة قرون الأولى ! ولا يتجاوز أحد هذه العتبة وإلا كان مبتدعاً لا سلفياً !

بل لقد تحدث النبي ﷺ – في أحاديث أخرى – عن الفتنة التي ستقع بعده، والملك الذي سيُغتصب والسنة التي ستتغير في سياسة الحكم والمال، وكلها وقعت في تلك القرون الثلاثة، والمقصود بالخيرية هو حال الأمة على العموم. فلا شك أن حالة النبوة أفضل من الخلافة الراشدة، والخلافة الراشدة أفضل من الملك العضوض، والملك العضوض – في عمومه – أفضل من الملك الجبري والطواغيت. وإن الأمة تستلهم في طريق عودتها "خلافة على منهاج النبوة".

بل هناك حديث آخر يتحدث عن حكم الصبية والغلمان وتوريث الحكم لهم: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال ﷺ: "**إِنَّ هَلَاكَ أُمَّتِي عَلَى يَدَيْ غِلْمَةٍ سُفَهَاءَ مِنْ قُرَيْشٍ**" [صحيح البخاري/ 3359 ، مسند أحمد/7672]

وهذا ما حدث بالفعل في فترة "الملك العضوض" بل إن راوي الحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال لمروان إن شئت أسميهم لك بني فلان وبني فلان !

حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ الْأُمَوِيُّ ، عَنْ جَدِّهِ ، قَالَ : كُنْتُ مَعَ مَرْوَانَ وَأَبِي هُرَيْرَةَ ، فَسَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ ، يَقُولُ : سَمِعْتُ الصَّادِقَ الْمَصْدُوقَ ، يَقُولُ : " هَلَاكُ أُمَّتِي عَلَى يَدَيْ غِلْمَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ ، فَقَالَ مَرْوَانُ : غِلْمَةٌ ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : إِنْ شِئْتَ أَنْ أُسَمِّيَهُمْ بَنِي فُلَانٍ وَبَنِي فُلَانٍ " . [صحيح البخاري/ 3359]

التسمية

عندما يُسأل السلفيين من أين جاءوا بهذا الاسم وهل هناك "دليل" عليه !

ذكروا حديث: "نعم السلف أنا لكِ " !

عَنْ عَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ، قالت فاطمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا عن النبي ﷺ: "..**وَلَا أَرَى الْأَجَلَ إِلَّا قَدِ اقْتَرَبَ ، فَاتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي ، فَإِنِّي نِعْمَ السَّلَفُ أَنَا لَكِ ، قَالَتْ : فَبَكَيْتُ بُكَائِي الَّذِي رَأَيْتِ ، فَلَمَّا رَأَى جَزَعِي سَارَّنِي الثَّانِيَةَ ، قَالَ : يَا فَاطِمَةُ ، أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَوْ سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ**" (صحيح البخاري/ 5839).

وهو استدلال عجيب يوضح سطحية في الرؤية والنظر، وتعصب لمسميات ما أنزل الله بها من سلطان.

ففي هذا الحديث يُحدّث النبي الكريم ابنته فاطمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، أنه خير أب أو سلف أو جيل سابق لها، ويواسيها عند اقتراب أجله ﷺ.. وكيف لا وهو رسول الله ﷺ ؟!

وفي حديث آخر: عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى هَذَا الْمِنْبَرِ ، يَقُولُ: "إِنِّي لَكُمْ سَلَفٌ عَلَى الْكَوْثَرِ". [مصنف ابن أبي شيبة/ 30977]

أي سابق لنا على الكوثر وداعينا إليه إن شاء الله.

إن الرسول يتحدث عن نفسه ﷺ ، وهذا مثل قوله "خير القرون قرني" فهل كل جيل سابق وكل سلف للخلف الحالي هو الخير؟!

ومن فرط تعصبهم جعلهم يقولون: النبي ﷺ كان سلفياً! ولنا أن نتخيل كيف تتلقى عقول البسطاء من الشباب والناس مثل هذه المقولات والأفهام ؟!

يتحدث القرآن عن الأجيال السابقة للأجيال الحالية طبقاً للمنهج المتَبع فقط.

فهو عاب على المشركين اتباع آبائهم وأسلافهم فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة : 170]

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة : 104]

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف : 23]

ورفض منهج التقليد للآباء لمجرد أنهم آباء، وأن المنهج الصحيح هو اتباع الرسل والكتاب فقط، فقد يكون آبائهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون.

وفي قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يتحدث عن آباءه وأسلافه فيقول: ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآءِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ [يوسف: 38]

فمدار الأمر كله على منهج الحق، سواء كان الأسلاف عليه أم لا.

اتباع الدليل

ولا شك أن كل مسلم يتبع ما جاء به الوحي، ويتبع الأدلة الشرعية بمجموعها غير متفرقة ولا متقطعة ولا مجتزئة. في صورة كلية شاملة ترد الأمر كله لله، وتُنزل الأحكام على واقعها ومناطها، حتى تحقق مراد الله في إقامة الحق والعدل الرباني لكل الناس بلا تفرقة.

ولكن الصورة السلفية المطروحة – في الأجيال المتأخرة – أخذت هذه المسألة بصورة شديدة الجزئية، بل وأحياناً بصورة متناقضة.. الأمر الذي حال دون إقامة المنهج الإسلامي برؤية شاملة متكاملة من ناحية الشرع أولاً، ورؤية شاملة متكاملة من ناحية الواقع ثانياً، ومن ناحية توحيد الأمة ومواجهة نوازلها ثالثاً !

إضافة إلى ذلك التعصب في أخذ الحديث، وتضعيف بعض الأحاديث الخاصة بإنكار المنكر.. وجعل من يأخذ به لا يتبع الدليل، ومن ثم ليس سلفياً، ومن ثم فهو مرفوض !

وتحول اتباع الدليل إلى اتباع المذهب إلى اتباع شيخ معين في المذهب إلى تقديس الرجال وأقوالهم في النهاية ! وتسفيه وتبديع ورفض بل ومعاداة ومحاربة كل رؤية أخرى !

* * *

رد الفعل

نشأ عن الجانب الآخر كردة فعل لهذا المنهج السلفي منهج يرفض كل هذا التراث الضخم جملة وتفصيلاً، ويطعن في العلماء بحق وبغير حق ! ونشأ عن هذا الحقد والغل منهج اتباع الهوى في النظر في الوحي، وتفسيره حسب الأهواء ! حتى يتم تفريغ الوحي من مضمونه ورسالته، وجعله – في النهاية – شيء قابل للتغيير والعبث والتناقض، مما يترسب في وعي الأمة اللاشعوري أن نور الوحي قد انطفأ ! وأن هذه الاختلافات ستحول دون

إقامة الدين، وتحكيم الشريعة، وإعلاء كلمة الله، وحمل الرسالة، وتوحيد الأمة.. وأن هذه الاختلافات تجعل من اللفظ الواحد والمعنى الواحد أكثر من طريقة وأسلوب، وبهذا لن يتفق أحد.

وفي نفس الوقت لا يقبل وعي الأمة العام الطعن في كتاب الله ووحيه، فيتجه نحو تجميده وحفظه على الطريقة السلفية في المكتبات والاحتفاظ له بمكانة خاصة مجهولة في القلوب.. بينما هو - في نفوسهم - قد فقد بريقه وضياءه وقدرته على التوجيه والقيادة !

هذا الإحساس اللاشعوري في وعي الأمة نشأ نتيجة الصراع بين المنهج السلفي الجامد! ومنهج اتباع الهوى في رؤية كتاب الله.. وعجز كليهما عن مواجهة قضايا الأمة المصيرية.

* * *

وبالعودة إلى نشأة هذا المصطلح "السلف الصالح" في فترة علماء "الملك العضوض" وبالأخص فترة الخلافة الأموية كان يعني جيل الصحابة والخلافة الراشدة، واستعملوا هذا المصطلح اختصارًا للرد على الشبهات والبدع والخلافات التي وقعت في عصرهم، حيث اختلطت العقيدة بالفلسفة، واختلط الحديث عن أسماء الله سبحانه وصفاته بمنهج علماء اللاهوت والفلسفة اليونانية القادمة إليهم في هذا الوقت من الزمان، وغيرها من البدع والشبهات.. الأمر الذي استدعى هؤلاء العلماء إلى أن يجعلوا هناك مقياساً عاماً وميزاناً دقيقاً يرجعون إليه هو "سلفهم" وسلفهم هم الصحابة وجيل الخلافة الراشدة.

هكذا كان معنى سلفيتهم، وكان يحتجون به أمام أهل البدع والإفراط والتفريط، فكان دفاعهم عن "السنة" له عظيم الأثر في الحفاظ على الدين ومنهجه أمام الهجمات الآتية إليه من حدب وصوب.

ثم انحرف المعنى بعد ذلك ليشمل من هم دون "جيل الصحابة والخلافة الراشدة" ويتصف بعد الصراعات بالجمود والسطحية والتقليد، والعجز عن مواجهة مشكلات العصر.

وفي هذه الفترة اعتبرت كل جماعة نفسها صاحبة الحق الأصيل الوحيد في التواجد على مسرح الحياة الإسلامية بسبب تاريخ أسلافها المجيد، وأصيبوا بداء (العجب) والادعاء بأنهم أوصياء على المجتمع الإسلامي، وأنهم وحدهم أهل السنة والفهم الصحيح للعقيدة الإسلامية، وهذا ما يُولد التناحر والشقاق والفرقة، والاستعلاء الثقافي على الغير. صاحبه السعي إلى تحكيم رجال المذهب أنفسهم، لا تحكيم رسالة الإسلام.

* * *

أنواع السلفية:

ولعل الخط العام الذي يميز الفكر السلفي هو "التقليد والجمود والغلو والأحادية" وعلى أساسه تفرّعت مدراس مختلفة للسلفية متأثرة ببعض الأفكار الجديدة الدخيلة على "الفكرة الأم". وكما هي عادة "المقلد" الغلو على المخالف، وصلت معها إلى درجة التكفير بين المدارس المختلفة.

السلفية التقليدية: فجمدت على حماية عروش الطغاة والظالمين، وحماية الاستبداد السياسي في كل جيل، وغلت على من خالفها وأغلظت عليه.

السلفية العلمية: فخرجت من واقع الحياة أصلاً، لتعيش في التاريخ، وهي تُخدَم على السلفية التقليدية. وكلاهما يعتبر كل مخالف للحكام خوارج !

وبين هذا النوعين تجد أنواع أخرى من السلفية، حسب فكر كل شيخ وكمية أتباعه !

السلفية الحركية: فجمعت بين التقليد والحركة، وهي سلفية ثورية سياسية.. ترفض الظلم والطغيان، وهي تعتبر جديدة ودخيلة على السلفية التقليدية والعلمية.. بل وتتهم السلفية التقليدية السلفية الحركية بعدم سلفيتها، وتضربها بسوط "الحرمان السلفي" ! وهي مازالت في طور البداية، ولم يتبلور لها مشروع سياسي متكامل بعد؛ لذا يصعب نقدها وتحليلها لأنها مازالت في البداية، وهي أكثر انفتاحاً، وعسى الله أن يوفقها ويستعملها في خدمة الإسلام، ونهضة المسلمين.

السلفية الجهادية: يجب أن نفرق بين "السلفية كمنهج فكري" "والجهاد كذروة سنام الإسلام" ولا يمكن الحديث هنا بإنصاف عنها، فهي في صراع فكري مع السلفية التقليدية والعلمية.. والاتهامات بالإرجاء وبفكر الخوارج والتكفير متبادلة بينهم، فهي مختلفة عن سابقيها في موقفها من الحكام، بل مناقضة لهم لدخول الأفكار الثورية عليها، واعتمدت فقط المواجهة المسلحة، واعتبرتها الوسيلة الوحيدة للتغيير، إضافة إلى الصدام السريع، واستعداء الجميع، وفتح جبهات للصراع مع جميع الأطراف.. حتى ولو كانت منفردة! وغلّت على المخالف. وحصرت مفهوم القوة في "السلاح" دون إدراك الأبعاد الأخرى لمعنى (القوة والتمكين وبناء الدولة).

ويبدو التناقض واضحاً بين المدارس السلفية المختلفة، رغم أن الجميع يدعي أنه "السلفي" والآخر ليس سلفياً!

وكانت النظرة الأحادية الضيقة المحدودة هي الجامع الكلي بين المدارس السلفية: إما الوصول للسلطة بالقوة وعندها يبدأ التغيير "السلفية الجهادية". وإما التربية الفردية المنعزلة "السلفية التقليدية والعلمية".

لم يُوفق أحد بعد إلى الوصول إلى حركة إحيائية شاملة، تتحرك في كل اتجاه وعلى كل صعيد: سياسي واقتصادي واجتماعي وإعلامي وتربوي ودعوي وجهادي.. وتنطلق في كل اتجاه كجسد واحد يشد بعضه بعضاً. أم بهذا الجسد مضغة فاسدة بسبب الظلم والبغي والهوى ؟!!

ويجمع كذلك كل هذه الأنواع أنها تحولت إلى كيانات وأحزاب.. وحركات تكاد تكون منفصلة عن الأمة، ولا يجمعها رابط. وانتقلت من الأمة إلى الحزب، ومن العقيدة الشاملة إلى الفكرة الجزئية.. أو هكذا كانت نشأتها من الأساس.

إضافة إلى عجزها عن الاستقلالية الفكرية والحيوية المتجددة، فهي دوماً تبحث عن "شخص" تقلده، وتحُمّل عليها كل فكرها وحركتها ! فضلاً عن العجز عن النظرة الكلية للعقيدة والواقع والتعامل بحرية مع الإنتاج الفكري لكل المسلمين بما يخدم مشروع الأمة.. إذا كان هناك مشروع بالأساس ! ولهذا نجد فجوة عميقة تكاد تصل لأجيال بين الشيخ والمتبوع ! وبعد غياب الشيخ تنهار هذه الكيانات سريعاً، حتى يظهر لها شيخ آخر.

تربية الشيخ والمتبوع تُخرّج قطيعاً يفشل في القيادة وملء الفراغ دوماً ! وربما كذلك – وقد حدث – يخرج شيخ جديد يكون على النقيض تماماً من أصل الفكرة التي قامت عليها المدرسة، وينحرف بها دون أن يدرك الأتباع !

وبهذا الجمود والحزبية والأحادية والجزئية في النظر، وقعت كوارث لا حصر لها !

* * *

جهود التيار السلفي:

1- محاربة البدع والشرك في العبادات كالدعاء والاستعانة بالقبور.

2- نشر معالم السنة النبوية في الهدي الظاهر.

3- الدعوة إلى العبادات والصلاة، وكثرة المساجد.

4- الاهتمام بحفظ القرآن الكريم، والحديث الشريف.

5- شيوع مظاهر التدين والحجاب والنقاب بالمجتمعات.

6- الرعاية الاجتماعية لبعض الفئات المهمشة والفقيرة.

7- نشر الكتب الإسلامية المترجمة في البلاد غير الإسلامية.

* * *

خطورة المنهج السلفي الحالي:

1- الجمود – التعصب – التقليد – السطحية – القسوة على المخالف – التشنيع بالآخر لدرجة قد تصل إلى التكفير – الأحادية في التفكير.

2- العجز عن معالجة قضايا المجتمع ومشكلات العصر.

3- الشدة على الأمة والتراخي مع الحُكام.

4- تقديس الرجال وأقوال الرجال.. وجعلهم عتبة – لا يمكن تجاوزها – لفهم الإسلام والتعاطي مع المنهج الإسلامي.

5- خلو المنهج من إنتاج فكري مميز جامع للأمة ويحتوي قضاياها ويستوعب تحدياتها.

6- استلاب الوعي والفكر لدى الشباب عن اتباع المنهج الإسلامي بربانيته وشموله وثباته وتوازنه وإيجابيته وواقعيته ومثاليته.

7- تربية جيل سلبي تجاه قضايا أمته، وإن انشغل بها فهو عاجز عن قراءتها، فضلاً عن تحليلها، فضلاً عن إيجاد حل لها.

8- الغلو الشديد في الاهتمام ببعض القضايا الفقهية البسيطة، وترك نوازل الأمة العظام.

9- الدخول في تفصيلات دقيقة ومختلفة بعيدة عن الواقع، فتنشأ حالة من العزلة والفرقة وضياع المنهج وفعاليته.

10- اعتمد على اختيارات فقهية في زمان غير الزمان، ومرحلة غير المرحلة ويسموا ذلك في النهاية "علم السلف ونحن نقلدهم" وتركيز اختياراتهم الفقهية وأقوال السلف حسب الظروف السياسية والاجتماعية، ورد ما يتعارض مع سياسات النظم القائمة. واعتبار السلفية الفرقة الناجية المعصومة.

11- اعتمد المنهج على تخريج "فقه علماء السلطان" وصورة أقرب للكهانة تهتم بالمظاهر الشكلية في التدين على حساب الجوهر والباطن.

وبينما كان "السلف الصالح" (جيل الخلافة الراشدة) يقيم الدين، ويحُكم شرع الله، ويعلي كلمته، ويحمل رسالته، ويوحد أمته، ويحقق الحق والعدل الرباني لك الناس بلا تفرقة.. وبينما كان الخلفاء الراشدين وولاتهم لا يشعرون بأي تميز على الأمة في الجاه والمال والسلطان، وبينما كانت الرعية تحاسب خليفة المسلمين ! الفاروق !

على قطعة قماش زائدة عليه. إذا بنا نجد من بعض سلفية هذا الزمان كأنهم أصبحوا الوسادة الآمنة لكل مستبد وظالم وجبار ! وأصبح اللين والعذر والمداهنة والموادعة والرأفة والرحمة والدعاء بظهر الغيب والشهادة لكل ظالم، بينما على عامة الأمة وبسطاء الناس الذين فسادوا بسبب الظلم والفساد وقابليتهم له.. أشداء أغلاظ يحاسبونهم على السنتيمترات من قطعة القماش إذا تجاوزت كعب القدم !

وظنت العامة أن هذا هو الدين.. وهو في خدمة العرش والسلطان ! بينما الصورة الصحيحة للدين أن السلطان والمال والسياسة وكل شيء يدور في فلك الدين.

والناس على دين ملوكهم، وكيفما يكونوا يُولى عليهم. فإذا فسدت الملوك فسدت الرعية، وإذ لم تأخذ الرعية الموقف الشرعي من إنكار المنكر والأمر بالمعروف في صورته الشاملة والكلية؛ سلّط الله عليهم ذل الحكام وظلمهم.

ويجب أن أشير إلى أن هذه الآثار والمشكلات الناتجة عن هذا الفكر لم تكن بسبب الفكر وحده، بل إن هناك "أمراض الاستبداد" التي تفتك بالنفس المسلمة، وللأسف هذه الأمراض تغفل عنها الحركة الإسلامية بكل أطيافها وتياراتها. وأعكف على بحث في هذه الأمراض.. يسر الله لي كلمة الحق، وهداني إليها.

* * *

المنهج النبوي

إن المسلم لا ينتسب لشيء سوى "الإسلام" ولا شيء غيره ففيه الكافية من كل إضافات ومسميات أخرى.

فالإسلام يعني العقيدة والشريعة والهوية والمنهج والفكر. فالمسلم ينتسب للإسلام ولا يحتاج معه لإضافات أخرى.. وكل ما ينشأ من مسميات تُفرق الدين، وتنشأ العصبية والتحزب، وتفرق الأمة فهو دعوات جاهلية.. وفي الحديث: عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، قَالَ : كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَاجْتَمَعَ قَوْمُ ذَا وَقَوْمُ ذَا، وَقَالَ : هَؤُلَاءِ يَا لَلْمُهَاجِرِينَ ! وَقَالَ : هَؤُلَاءِ يَا لَلْأَنْصَارِ ! فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ: **" دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ "**، ثُمَّ قَالَ : " **أَلَا مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ ، أَلَا مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ ؟ !** " .[مسند الإمام أحمد/14336]

لذا يجب التفرقة بين السلف الصالح الذين هم جيل الصحابة والخلافة الراشدة وسنتهم في سياسة الحكم والمال، وبين جيل علماء السنة والذين دفعوا عن السنة عموماً في مرحلة الملك العضوض، وحفظوا الحديث الشريف. وبين علماء المذاهب الفقهية. والنظر بموضوعية بين هذه المذاهب، وعدم اعتبار "السلفية" في هذا العصر هي (منهج الهدي النبوي) الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وأن هناك أفعال وتصرفات

مرفوضة وقعت بين مذهب الحنابلة، والأشاعرة ! وأن المسلم لا يستحضر الآن تلك الخلافات، ولا يتحزب لأي طرف.. بل يتعامل مع كل علماء المسلمين بلا غل ولا حقد ولا حسد ولا تفرقة، ويتعاطى مع كل الإنتاج الفكري لعلماء المسلمين طالما لم يخرج عن "كتاب الله وسنة نبيه ﷺ" ليستلهم طريق عودة الخلافة الراشدة. وإن المسلم ينتسب للإسلام لا للمذهب، وولاءه لأمته لا لحزب أو فرقة.

لذا علينا استبدال المنهج السلفي الحالي بنمطه الفكري بالمنهج النبوي كما جاء في الحديث الشريف المُحدد بدقة "المنهج الواجب الاتباع": "**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين..**"

هكذا كان أمر رسول الله ﷺ في اتباع سنته في العبادات والمعاملات ومنهج الحياة، وسنة الخلفاء الراشدين في الحكم وسياسة المال والسلطان. **وسياستهم في الحكم**: كانت قائمة على إقامة الدين، وتحكيم الشريعة، وإعلاء كلمة الله، وحمل رسالته، وتوحيد الأمة، وأن يأتي الحاكم بمشورة المسلمين.. ولا يغتصب الحكم ملكا أو جبراً، ولا يتميز الحاكم بشيء على باقي المسلمين في جاه أو مال، ولا يلغي شورى المسلمين. **وسياستهم في المال**: الثروة للأمة وتوزع بالتساوي وحسب الحاجة ولا فضل لأحد، وتحريم كل مظاهر الربا والاحتكار والكنز والفساد والظلم والمحاباة...إلخ.

وتصبح سنة النبي ﷺ وسنة خلفاءه الراشدين هي وحدها الميزان والمرجع الدقيق والتصور الصحيح والقيم المنشودة. وهي كافية – إن شاء الله – لقيام الحياة الربانية وعودة الخلافة الراشدة من جديد، وبعث الأمة مرة ثانية لتكون خير أمة أخرجت للناس؛ ليفيض نورها على كل البشرية كما أفاض أول مرة.

والخلاصة إن المنهجية الإسلامية قد حددّها النبي ﷺ بحديث دقيق حاسم:

* عَنْ عِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ ، قال رسول الله ﷺ: " **أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا ، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ ، فَتَمَسَّكُوا بِهَا ، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ** " [أخرجه أحمد / 16814]

* عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ ، فَقَالَ: " **يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا: كِتَابُ اللَّهِ، وَسُنَّةُ نَبِيِّهِ** " [السنن الكبرى للبيهقي/ 18713]

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: " **أَلَا وَإِنَّ رَحَى الْإِيمَانِ دَائِرَةٌ، فَدُورُوا مَعَ الْكِتَابِ مِنْ حَيْثُ يَدُورُ** " [المطالب العالية لابن حجر /4491]

ويصبح الإرث العظيم الهائل من بعدهم هو محل النظر والتفكير والتحليل والاستقراء، واتباع الصحيح منه، وترك الخطأ، أو ما كان ذات رؤية محدودة، أو ما نشأ نتيجة صراع مذهبي.

وإننا نقيم هذا الصراع المذهبي الذي وصل لحد الاقتتال بأنه دعوى الجاهلية كما قال النبي ﷺ: "دعوها فإنها منتنة" وقال ذلك لمجرد أن تنادى كل فريق لقبيلته ! فما بالنا بمن وصل لمرحلة الاقتتال وغيرها من الأخلاق المنحرفة !

ونرفض – ونحن في طريق خروج الأمة وإحياؤها من جديد – هذه المذهبية، وهذه العصبية الجاهلية.

وإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُبين أن الافتراق في الدين إنما يقع ليس بسبب الكتاب أو الجهل ببعض ما فيه، إنما يقع بسبب البغي والظلم: ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى : 14]

والبغي والظلم صوره كثيرة:

- بغي النفس على نفسها بحقدها وحسدها وغلوها وإفراطها وتفريطها.
- بغي النفس على الآخرين، بانتقاص حقوقهم الأخوية والإيمانية والدنيوية.
- بغي النفس على أمتها، بتقصيرها في القيام بدورها تجاه أمتها.
- بغي النفس على دينها، بتقصيرها في إقامة الدين والشرع.
- بغي النفس على مجتمعها بتركه بلا علاج لأمراض الاستبداد والقهر.
- بغي النفس على رسالتها بتخليها عن حمل رسالة النجاة، وإنقاذ البشرية.
- بغي النفس بتركها الآخرة والركون إلى الحياة الدنيا.

صور شتى للبغي والظلم الواقع لا بسبب نقص العلم، وإنما بسبب ظلم الإنسان لنفسه ولمجتمعه ولأمته ولدينه ولرسالته وللبشرية.

* * *

إن معجزة هذا الوحي (كتاب الله وسنة رسوله ﷺ) أنه نور مضيء عبر الزمان لن يضل أبداً من تمسك به:

– عَنْ جَابِرٍ ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : **"تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ؛ كِتَابُ اللَّهِ"**
[مصنف ابن أبي شيبة/ 29488، مسلم/ 1218]

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " **إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا : كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي ، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ** " .[المستدرك على الصحيحين/290]

وإن معانيه تتجدد باختلاف الأزمنة وتنوع الأمكنة.. الأمر الذي يجعله - كما أراده الله - منهج حياة إلى قيام الساعة. وأنه يفتح نوره لمن أقبل عليه يتلمس منه المنهج والطريق، وفيه الكفاية والهداية.

ولقد حفظ الله كتابه - الوحي - وإن كان من فُرقة وعصبية فإنما تقع بسبب البغي والظلم. ولهذا الكتاب نموذج بشري محفوظ تاريخه هو "سيرة النبي والخلفاء الراشدين".

وبقي كل تراث من بعدهم محل نظر واجتهاد.

وإن التفكير والمنهج الإسلامي الصحيح يبدأ بعلوم الوحي، وينتهي بعلوم الواقع وسنن الله في كونه. لأن الوحي إنما جاء ليعالج هذه الحياة التي نعيشها، ولا سبيل لإقامة الوحي والدين، وتحكيم شرع الله، وإعلاء كلمته، وتوحيد الأمة، وحمل الرسالة؛ إلا بفهم الواقع والحياة، ولأن واقع الحياة أصبح من التعقيد الذي يحتاج إلى فهم دقيق؛ جدّت علوم كثيرة لإدراك الحياة وفهم الواقع، فلم يعد تلك الصورة السهلة البسيطة للمجتمعات والحياة، بل تشابكت الحياة وصارت مستجدات وتطورات يَصعب معها على الإنسان أن يُدرك الواقع بمجرد النظر إليه.. ولا سبيل لأي فقه من دون إدراك الواقع والحياة، وبالتالي أدخلت هذه العلوم نفسها على الفقه الإسلامي لأنه سيظل الوسيلة التي ستُقام بها الشريعة الإسلامية التي هي حق الله على العبيد.. وأصل أصول التوحيد.

ومن هذه العلوم بعد علوم الوحي ومقاصد الشريعة:

[علوم الخلافة الراشدة، والمذاهب الفقهية، وعلوم الصياغة، العلوم السياسية، علوم الحرب، والقوة، إدراك الواقع، العلوم الاجتماعية، علوم الاستبداد، السنن الربانية، علوم قيام الدول وسقوطها، العلوم المؤسسية، العلوم النفسية، العلوم الفكرية، العلوم الحضارية، العلوم الاقتصادية، العلوم الاستغرابية، العلوم الاستشراقية، العلوم الإعلامية وفنون التأثير، العلوم الاستراتيجية والتكتيكية والإدارية، العلوم المستقبلية، العلوم التاريخية]

إن مرحلة الوعي تبدأ بـ:

1- "الدوران مع الكتاب حيث دار".

2- الخروج من العصبية الجاهلية.

3- البحث في سنن الله في الكون.

4- رؤية علوم الشريعة بمنظور أوسع من كتب السلف، وخروج مصطلح "العلم الشرعي" من مجرد حفظ الكتب والأسانيد.

5- رؤية قضايا الأمة المصيرية بمنهجية علمية دقيقة.

6- التحرر من الفكر المنحرف الناشئ من التقليد والجمود. واتباع منهج التفكير الإسلامي.

وحتى تتوحد الأمة ونستطيع إقامة الدين وتحكيم الشريعة وإعلاء كلمة الله وحمل رسالته؛ ونمضي في صراط الله المستقيم.. لابد من توحيد مرجعية الأمة للكتب والسنة بفهم التصور الإسلامي **بخصائصه**: الربانية، الثبات، الشمول، التوازن، الواقعية، الإيجابية، المثالية، التوحيد.

ومقوماته: حقيقة الله، والكون، والحياة، والإنسان.. وعلاقة الإنسان بكل هؤلاء.

ذاك ما يقدمه المنهج الإسلامي من فكر ومنهج وغاية وطريق.

* * *